

المرجعية الدينية بين كفاءة أهل العلم واحترام أهل الحكم

الشيخ الدكتور / أحمد تميم

مفتى أوكرانيا

أوكرانيا

مقدمة :

الحمد لله المتفرد بالعظمة والكبرياء، أحمده على السراء والضراء والعافية والبلاء، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد صاحب الشفاعة العظمى، من جعله الله شهيداً على الأمة الوسط لنكون على الناس شهداء، فلا شك أن السلم والأمن والأمان إنما يكون في الوسطية والاعتدال، وحضورهما في التمسك بعلم الدين والعمل به، فعلم الدين حياة الإسلام ولا تصلح الدنيا بدونه؛ لأن منبع التطرف الجهل بالدين والكسل في التطبيق، ويعلم الدين يعلم الإنسان حقوق الله وحقوق العباد. إن السبب الرئيس في انتشار التطرف إهمال بعض الناس جانب تعلم علم الدين الضروري، فهم اليوم كما قال سيدنا على عليه السلام : **نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**. إن الكثير من المدارس العصرية - بداعي العلمانية - ابتعدت عن تعليم هذا العلم على الوجه المطلوب، مما جعل البعض يُرسلون أولادهم إلى أمثال مدارس الأحزاب التي سبست الدين ونشرت أفكار المشبهة والتكفيريين، فيعلمونهم الغلو، وما هو ضد الدين.

علم الدين ليس فكرة بينكرها الشخص، علم الدين لا يؤخذ ممن ليس له إسناد، إنما يؤخذ ممن أخذ عن غيره من النقات إلى البداية، روى مسلم عن عبد الله بن المبارك أنه قال: **الإسناد من الدين، ولو لا الإسناد لقال من شاء ما شاء**، وقال سيدنا على عليه السلام وكرم الله وجهه: **الْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ**.

ورد في مسند الإمام أحمد، وفي جامع الترمذى من طريق سليمان بن يسار، قال: قام فينا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه في الجابية فقال: قامَ فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفتشو الكذب ويظهر فيهم السمنُ يشهدون ولا يستشهدون وينذرون ولا يوفون فمن أراد بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة"، ينصحننا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بالتمسك بما كان عليه أصحابه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، أي: الصحابة والتابعون وأتباع التابعين فهم أهل القرون الثلاثة الأول؛ هؤلاء شهد الرسول لهم بالفضل لما خصوا به من بين أمته، فاتبعهم أمر عظيم لأن من اتبع أصحاب رسول الله والتابعين لهم بإحسان فهو من الفائزين، ومن اقتدى بهم الاقتداء التام فهو من الفائزين.

فمن ثبت على ذلك من حيث المعتقد لا بد أن يدخل دار السلام، أما من حيث عمله فإن قصر وكان تقصيره عمّا كانوا عليه، من إضاعة بعض الفرائض وارتكاب بعض الكبائر فهذا أمره يعود إلى الله إن شاء يعاقبه لما قصر فيه، وإن شاء يسامحه، ولكنه مضمون له النجاة من الخلود الأبدى في النار، فمن هنا يجب الاعتناء بالاعتقاد أكثر من غيره؛ لأن الاعتقاد عليه صحة الإيمان والإسلام، ومن لم يصح اعتقاده لا يصح له إيمان ولا إسلام.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَرَاعًا يَتْرَعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"^(١)، وعن الشعبي عن مسروق قال: قال عبد الله بن مسعود: "قُرَأُوكُمْ وَعِلْمَاؤُكُمْ يَذْهَبُونَ وَيَتَّخِذُ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا يَقِيسُونَ الْأُمُورَ بِرَأْيِهِمْ"^(٢) وقيل لرسول الله: فهل بعد ذلك الخير من شر، قال: "نعم دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها"، قيل: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: "هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا"^(٣).

فيجب الحذر والتحذير من هؤلاء الجهلة التكفيريين الذين ينشرون العقائد الفاسدة باسم الإسلام، ويستحلون دماء الناس وأموالهم، حكامًا ومحكومين، لا يفرقون بين كبير وصغير ولا بين النساء والرجال ولا بين الشيوخ والأطفال؛ فعلهم على هوى عقيدتهم، هم من قالوا: من دخل في دعوتنا فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن لم يدخل فهو كافر حلال الدم والمال، وهم من كفروا علماء

(١) متفق عليه.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي (١/١٣٦).

(٣) رواه البخارى.

المسلمين وعوامهم في مصر وسائر المعمورة، وحرموا الصلاة خلفهم ووصفوهم بالقبوريين، وكفروا كل من يقلد مذهب الشافعي، أو مالك، أو أحمد، أو أبي حنيفة، وضلوا أبا حنيفة، وضلوا الغزالي والنووي وابن حجر والسبكي والسلطان صلاح الدين والسلطان محمد الفاتح، واتهموا عقيدة الأزهر، وكل المذاهب والفرق، ولم يستثنوا إلا زعيمهم ومن شرب من مائه العكر، ومع كل هذه القبائح التي عندهم يرمون غيرهم بما فيهم كذبًا وزورًا وحسدًا واقتراءً.

إن غياب الأمن والأمان والسلم الأهلي وانتشار الفتن وتغير الأحوال وفساد الأمة واختلاف القلوب وإحياء البدع وإماتة السنن في عصرنا أساسه الإرهاب الفكري، وهو نمط قديم من الإرهاب، مبنى على الانحراف عن الوسطية والتعمق في الغلو باسم الدين، وكذا سائر العقائد الفاسدة، وهو المؤثر المباشر على جهلة الشباب من خلال التشكيك في العقيدة وثوابت الدين إذ تستقى أفكارها الدينية من كتابات تكفيرية .

إن مكافحة الإرهاب تستوجب تفكيك التطرف الفكري واقتلاع جذوره استنادًا على إستراتيجية واضحة مبنية عقائديًا على قاعدة الإجماع الديني، وخبرة مدارس أهل العدل عبر التاريخ ودعم الحاكم بسلطته التنفيذية .

إن ما تعيشه الأمة من الوهن والتنازع وانكباب الأعداء عليها وتقوية شوكة أهل البدع والتطرف ليس بالأمر الجديد، إلا أنه عند كل محنة قيض الله لهذه الأمة من ينفذها ويجدد لحمتها ووحدتها، ودومًا كان للأئمة العلماء من أهل السنة الأوحى في بلوغ النصر والفلاح لوقوفهم جنبًا إلى جنب مع الحكام المتمسكين بتعاليم الدين العادلين في حكمهم السامعين لنصيحة العالم المطيعين لأحكام شرع الله تعالى، وقد تعددت عبر التاريخ أساليب أهل السنة في مقاومة الفرق المنحرفة، فمن التعليم والتربية والتثقيف والدعوة، إلى المواجهة العسكرية، خاصة لمن استطار شرها وحملت السلاح ضد المسلمين.

ومن أمثلة التاريخ ما قام به الحسن البصري بوقوفه بوجه المعتزلة، وحكمته في التصرف مع حكام بني أمية، وموقفه متحفظًا على الأحداث السياسية، ودعمه ونصحه للحاكم الورع المطبق لأحكام الدين مثل عمر بن عبد العزيز. ولا يخفى دور الإمام أبي حنيفة النعمان والتزامه الحكمة بعلاقة أهل الحكم معه، وتفرغه لنشر العلم ومجابهة الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء والبدع، وانشغال الإمام مالك بسد الذرائع وحمايتها، والموقف الصلب عند كل من الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل من المشبهة وسائر أهل الأهواء، وهكذا على مر التاريخ.

ولابد من القول إنّ الجامع عند جميع أئمة أهل السنة والجماعة كان دومًا هو الاعتصام بالثوابت العقديّة ، مع استعمال الأدلة العقلية إضافة إلى النقلية ؛ بهدف الانقضاء على عقائد أهل الأهواء من مجسمة وخوارج وغيرها من الملل والنحل.

وخير دليل على ذلك ما قامت به المدارس النظامية^(١) في العصر السلجوقي^(٢)، في ردع أهل البدع ونشر وحماية عقيدة أهل السنة والجماعة والدفاع عن أراضيها، ومن ذلك سماع السلطان ألب أرسلان لنصيحة وفتاوى الفقيه الحنفى أبى نصر محمد بن عبد الملك البخارى وخوض السلاجقة ضد الروم واحدة من أكبر المعارك في تاريخ الإسلام هي معركة ملاذكرد سنة (٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م) ، والتي نتج عنها بداية انهيار الدولة الرومية البيزنطية، ودخول الإسلام إلى مناطق جديدة.

وإلى المدارس النظامية يعزى، ظهور الجيل المجاهد من العلماء والقادة العسكريين فى عصر صلاح الدين الأيوبي (ت ١١٩٣ م) الذى قضى على الدولة الباطنية العبيدية (المشهورة بالفاطمية) فى مصر، وانتصر على الصليبيين وحرر بيت المقدس الشريف. ولابد أن نبين هنا ما قاله أبو شامة فى استشارة صلاح الدين الدائمة للقاضى الفاضل " . كان لا يأتى أمرًا إلا من بابه".

وكذا المماليك وحرهم للمغول التتر وانتصارهم عليهم فى عين جالوت ١٢٦٠م، بقيادة الملك المظفر سيف الدين قطز الذى كان يعتمد فى ذلك على نصيحة وفتوى العز بن عبد السلام^(٣). وغيرهم الكثير.

(١) نسبة إلى وزير السلاجقة الفذ نظام الملك: الحسن بن على الطوسى، أبرز وزراء الملوك السلاجقة، وأحد أعظم الوزراء فى تاريخ المسلمين، كان له الفضل فى تأسيس المدارس النظامية ورعايتها. عرف بالصلاح والحكمة وحسن تدبير الأمور. ولد سنة ٤٠٨ هـ، ومات مقتولاً سنة ٤٨٥ على يد أحد دعاة الإسماعيلية الباطنية. تولى الوزارة للسلطانين السلجوقيين ألب أرسلان وولده ملك شاه قرابة ٣٠ عامًا، ازدهرت خلالها أحوال الدولة، وكان مجلسه رحمه الله عامرًا بالعلماء والفقهاء، وكان محبًا للخير. حزن المسلمون لمقتله، وراثه الشعراء بقصائد، منهم: مقاتل بن عطية.

(٢) السلاجقة: تركمان ينتسبون إلى جدهم سلجوق بن دقاق، الذى كان قائدًا عسكريا عند أحد ملوك الترك، تأسست الدولة السلجوقية فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى على يد طغرل بك أول ملوكها، ثم أصبحت القوة الأولى فى العالم الإسلامى، وامتد حكمها إلى أرجاء عديدة منها العراق وبلاد فارس والشام. وخاض السلاجقة ضد الروم واحدة من أكبر المعارك فى تاريخ الإسلام هي معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) والتي نتج عنها بداية انهيار الدولة الرومية، ودخول الإسلام إلى مناطق جديدة، إضافة إلى فرض السلاجقة أنفسهم قوة لا يستهان بها. عصفت الخلافت الداخلية بالبيت السلجوقي، وأدت إلى إضعاف دولتهم، لا سيما بعد مقتل وزيرهم الفذ نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ، ثم سقوطها على يد المغول بالتزامن مع الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ.

(٣) ت ١٢٦٢م، برز فى عهد الحروب الصليبية وعاصر الدول الإسلامية المنشقة عن الخلافة العباسية ولعل أبرز نشاطه هو دعوته القوية لمواجهة الغزو المغولى التترى، وهو شافعى، ومن مشايخه فخر الدين بن عساكر.

ونستطيع استخلاص الكثير من القواعد والعبر من خلال انسجام الحاكم مع القضاة والعلماء
المعتبرين لإرساء الأمن والأمان وحفظ الاستقرار وحماية الدين.

ولا يسعنى عند كلامى عن وسائل تفكيك الفكر المتطرف الحاصل فى زماننا سوى القول بأنه
لا يصلحنا إلا اتباع سلفنا الصالح من الخلفاء والسلاطين والعلماء العاملين الربانيين. لا يصلحنا
إلا هذا!! والتشبه بالكرام فضيلة وفلاح.

ورأيت أن أختار مثالين من أمثلة العلاقة بين الحاكم وأهل العلم لاعتبارهما النموذج الأفضل
لحل مشاكل مجتمعاتنا لتشابه الكوارث مع زماننا المعاصر.

المثال الأول: دولة السلاجقة والمدارس النظامية.

ففى عهد دولة السلاجقة، التى قامت فى وقت كانت تسيطر فيه الفرق والحركات المنحرفة^(١)
على أجزاء واسعة من العالم الإسلامى، وتعمل على القضاء على الخلافة العباسية ونقلها إلى
العبيديين الفاطميين^(٢)، استدعت الظروف استعمال السلاجقة القوة العسكرية للقضاء على البويهيين
وغيرهم من الحركات المتطرفة، لغلوهم وانحرافاتهم الدينية وتسييسهم للدين، كالحشاشين
والاغتيالات السياسية التى قاموا بها، والقرامطة الذين شنوا حرباً شعواء على المسلمين.

لكن القوة لم تكن هى الوسيلة الوحيدة التى اتبعتها السلاجقة لمواجهة الفرق المنحرفة، رغم
أهمية هذا الأسلوب والاضطرار إليه، ذلك أن الدولة السلجوقية اتبعت أسلوباً آخر، وعلى المدى
البعيد، لمحاربة هذه الفرق، تَمَثَّلَ بالتعليم والدعوة، وإنشاء المدارس المتخصصة، لا سيما وأن
بعض الفرق الضالة اهتمت بنشر فكرها ومذهبها من خلال الدعوة والتعليم وإنشاء المعاهد
والمدارس، إضافة إلى القوة العسكرية.

ومن هنا أسس السلاجقة "المدارس النظامية" المنسوبة إلى وزير السلاجقة الفذ: نظام الملك،
الذى كان له الفضل فى تأسيسها ورعايتها.

هدف نظام الملك من إنشاء هذه المدارس إلى نشر الفكر السنى لمواجهة الفكر الباطنى وعقائد

(١) وفى مقدمة هؤلاء: البويهيون الرافضة (٩٣٢-١٠٥٦م)، والعبيديون الإسماعيليون (الرافضة الباطنية ٩٦٩م)،
وحركة البساسيرى (١٠٥٨م)، وبقايا القرامطة (٨٩٩-١١٧١م)، والحشاشون (١٠٥٠-١٢٧٣م).

(٢) انظر المزيد عن البساسيرى وحركته: http://alrased.net/show_topic.php?topic_id=٥٠

أهل الأهواء، والعمل على تقليصه، إضافة إلى إيجاد طائفة من الموظفين السنّيين ليشاركوا في تسيير مؤسسات الدولة، وخاصة في مجال القضاء والإدارة.

بنى نظام الملك مدارس في بغداد وبلخ ونيسابور وهرات وأصفهان والبصرة ومرو وآمل طبرستان والموصل، ويلاحظ من توزيع المدارس أن معظمها أنشئ إما في مدن تحتل القيادة والتوجيه، كبغداد وأصفهان، فالأولى كانت عاصمة الدولة العباسية، والثانية عاصمة السلاجقة في بعض الفترات، وإما في بعض المناطق التي كانت مركزاً لتجمع شيعي كالبصرة وطبرستان ونيسابور.

أولى نظام الملك المدارس اهتماماً كبيراً، فاعتنى بأمر الإدارة والتنظيم، وكان ينتقى لها المدرسين انتقاءً، ووفّر لها الإمكانات المادية، وأوقف عليها الأوقاف، ووفر السكن الداخلي للطلاب ليتفرغوا للعلم والتحصيل.

استمرت المدارس النظامية أمداً طويلاً، لاسيّما نظامية بغداد التي عاشت قرابة أربعة قرون، وصار كثير من الموجهين والدعاة في ذلك الزمان من مدرسي وطلاب هذه المدارس.

أما في الكلام عن المناهج والمدرسين فقد اقتصر التدريس في "النظاميات" على مذهب الإمام الشافعي - رحمه الله - في الفقه، وهو الذي ينتسب له نظام الملك، وفي العقيدة على المذهب الأشعري، وكان للأشاعرة جهود كبيرة في ذلك الوقت لمحاربة الفرق الضالة وأفكارها، وأخذ مدرسو المدارس النظامية وغيرهم بتأليف الكتب التي تبين عوار هذه الفرق والتحذير من أتباعها، وتم تدريس بعض هذه الكتب في النظامية^(١).

ويذكر تاج الدين السبكي في كتابه "طبقات الشافعية الكبرى"^(٢)، عن أبي إسحاق الشيرازي - أول مدرس بنظامية بغداد - قوله: "خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية، إلا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي".

(١) ومن مؤلفات تلك الفترة:

- فضائح الباطنية، لأبي حامد الغزالي، أبرز المدرسين بنظامية بغداد، وقد كلف بتأليفه من قبل الخليفة العباسي المستنصر سنة ٤٨٧ هـ، وفي هذا الكتاب يعتبر الغزالي الباطنية كفاراً في نشأتهم وصفاتهم وفي عقيدتهم وعبادتهم.

- قواصم الباطنية، حجة الحق، تهافت الفلاسفة... وهي للغزالي أيضاً.

- غياث الأمم في التياث الظلم، لإمام الحرمين الجويني، أبرز المدرسين في نظامية نيسابور.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٨٩٠.

والمدرسة النظامية^(١) من مدارس بغداد القديمة أنشأها الوزير نظام الملك في زمن الخليفة العباسي أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله، ومن العلماء الذين تصدروا للتدريس فيها الشيخ أبو إسحق الشيرازي، وأبو نصر المعروف بابن الصباغ، وأبو سعيد المعروف بالمتولي، وأبو حامد الغزالي، وأبو بكر الشاشي، وعلى بن أحمد بن يوسف القرشي الأموي الذي توفي عام ٥٥٧ هـ، وكان يدرس الفقه الشافعي والنحو واللغة والحساب.

المثال الثاني: الدولة الأيوبية وبناء مدارس المذاهب الفقهية:

بعد قرون من حكم العبيديين الفاطميين لمصر وإفسادهم وفرضهم للمذهب الإسماعيلي الباطني من جهة، وسيطرة الصليبيين على بر الشام وفلسطين وتكليفهم بالمسلمين وتعاون أهل الأهواء معهم من جهة ثانية، ورغم المؤامرات ومحاولات الاغتيال التي تعرض لها السلطان صلاح الدين الأيوبي في دفاعه عن العقيدة الإسلامية، ومن أجل إعادة مصر إلى مذهب أهل السنة وربطها بالخلافة العباسية، وفي سبيل محاربة أهل الأهواء؛ اعتمد صلاح الدين الوسائل السلمية والتربوية في ترسيخ مذهب أهل السنة في مصر.

فبعد المدرسة البيهقية في نيسابور، ثم المدرسة النظامية في بغداد، أخذت المدارس تنتشر في العراق وخراسان وغيرها من البلدان الإسلامية، أما في مصر فلم يكن بها شيء من المدارس، فقام صلاح الدين ببناء عدة مدارس للشافعية والمالكية، مقتدياً بالملك العادل نور الدين محمود زنكي الذي بنى عدة مدارس في بلاد الشام للحنفية والشافعية، وبعد ذلك تأسس بصلاح الدين في إقامة المدارس في مصر والشام أقرباؤه وأمرأؤه والأغنياء من الفقهاء وغيرهم.

وقد مهدت هذه المدارس الطريق أمام طلاب العلم لينهلوا من معين العلوم الشرعية والعربية وغيرها بأيسر جهد، وأقصر وقت، وأقل التكاليف، وأصبح طالب العلم غير محتاج إلى أن ينتقل

(١) ولهذه المدرسة شهرة عظيمة وكانت في جانب الرصافة من بغداد، وتم بناؤها وعمارته عام ٤٥٩ هـ ١٠٦٦م، وفتحت يوم السبت ١٠ من ذي الحجة من نفس العام، وتم تجديد عمارتها وبنائها عام ٥٠٤ هـ ١١١٠م، وهي مدرسة كان يدرس فيها مختلف العلوم، واعتبرت مع المدرسة المستنصرية من أشهر مدارس العصر العباسي، وهي من المعالم الأثرية التي اندثرت ولم يعرف موقعها واندرست رسومها، ومن آثارها المنارة المقطوعة في محلة تحت التكية التي هدمت في الخمسينات من القرن الماضي، ومن آثارها دار القرآن وهي حجرة كانت واقعة في سوق البزازين والتي اتخذها الملا أحمد بن الحاج فليح مدرسة لتدريس القرآن، هدمت بعد ذلك وانمحي أثرها، وموضعها على ما هو مشهور في سوق الخفافين وتمتد إلى سوق العطارين وحاليًا توجد مدرسة إعدادية في منطقة حي الوحدة في بغداد تسمى بالمدرسة النظامية سميت على اسمها.

من بلد إلى آخر يبحث عن المدرسين، بل صار المدرسون هم الذين يأتون إليه في المدرسة. وكان صلاح الدين يهدف من إنشاء المدارس التي شيدها إلى مقاومة الفكر المتطرف، عن طريق تعليم عقيدة أهل السنة والجماعة ونشرها بين العامة، ولا سيما مذهب الذي كان يعتقدوه وهو المذهب الشافعي، بالإضافة إلى أنها كانت مراكز لتتقيف الناس وتعليمهم لغتهم وأمور دينهم، وتبصيرهم بما يُحقيق بهم من مخاطر تهدد وجودهم، فعملت على إثارة روح الجهاد في الناس، مما جعلهم يلتفتون حول زعيمهم، مما مكنه من تحقيق انتصارات باهرة على الصليبيين، حيث تمكن من فتح أغلب معاقل الصليبيين التي كانت منخرسة في بلاد الشام.

إنَّ السلطان صلاح الدين في إنشائه المدارس لم يفرق بين مذهب وآخر من مذاهب أهل السنة والجماعة، ولا بين الفقهاء، بل أنشأ مدارس لجميع المذاهب السنية، وبذلك عمل على استبعاد العصبية المذهبية، وأنشأ سياسة تقوم على استقطاب جميع أهل السنة من أجل صنع جبهة موحدة؛ ليقوى بها في محاربة أعدائه.

ومنذ اللحظة الأولى لتسلم صلاح الدين الوزارة في مصر قام بتعيين قضاة سنيين من أتباع المذهب الشافعي؛ فقام سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م، بإسناد قضاء مصر إلى الفقيه الشافعي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي (ت ٦٠٥ هـ / ١٢٠٩م)، وعهد إليه باستنابة قضاة عنه في البلدان المصرية، ويدل ذلك على أنه كان بمنزلة قاضي قضاة.

وقد قام "ابن درباس" بتنفيذ ما أسند إليه من مهام وأثبت جدارة في عمله، فقام بإسناد مناصب القضاة في المدن المصرية إلى فقهاء من الشافعية أسهموا بدورهم في نشر المذهب الشافعي، وبذلك استعاد المذهب السني قوته، وأخذ نجم أهل الأهواء بالأقول عن سماء مصر، إلى أن حاول البعض وعلى مدى عشرات السنين أن يستغل وهن مجتمعاتنا الحالى ليستأثر بها من جديد، ولكن أبى أهل مصر إلا الثبات على نهج نبي الهدى عليه أفضل الصلاة والسلام.

ومن السياسة الحكيمة التي بنى بها صلاح الدين سلطانه وبسط الأمن في ربوع دولته:

الاهتمام بالفقهاء :

من هؤلاء الرجال الذين اعتمد عليهم صلاح الدين، الفقهاء الذين شغلوا أعلى المناصب في الدولة، فكان منهم الأمير في الجيش، وكاتب الديوان، والقاضي، والمحتسب، والمدرس، والخطيب. ويرجع اهتمام "صلاح الدين" بالفقهاء إلى أنه أدرك الدور الخطير الذي يمكن أن يقوموا به، من حيث قدرتهم على كسب الرأي العام وتحريكه نحو الجهة الصحيحة التي يريدونها. وإدراكاً منه لدور الفقهاء المهم في المجتمع، اهتم بهم اهتماماً كبيراً، ومما يدل على ذلك أن

العلماء فى دولته كان لهم امتيازات. مما أدى بهذه المدارس أن جعلت من عهد صلاح الدين عهداً مشرقاً سواء فى مصر أو بلاد الشام؛ إذ أصبحت محور استقطاب العلماء من جميع البلدان الإسلامية، لما كان يلاقىه الفقهاء من كريم العناية والرعاية، ولما كان يغدقه صلاح الدين عليهم من أعطيات ومنح كثيرة، فقد بلغت المرتبات للفقهاء والمدرسين بدمشق فى عهده حوالى ثلاثمائة ألف دينار، وكان عددهم حوالى ستمائة مدرس وفقهه.

ومن مظاهر اهتمام صلاح الدين بالفقهاء أيضاً، أنه كان كثير الاستشارة لكبارهم، فكان لا يقطع أمراً إلا بعد أخذ رأيهم، فيه ويأتى فى طليعة كبار العلماء الذين كان يستشيرهم: كاتب ديوانه القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى (ت ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م)، يقول فيه صلاح الدين: "لم أفتح البلاد بسيفى وإنما برأى القاضى الفاضل".

قمع المبتدعين وأهل الأهواء:

ومع كل هذا الاهتمام والتقدير للفقهاء، إلا أنه كان لا يُمكن أحداً من إظهار ما يخالف مذهب أهل السنة، ولا سيما فى أمور العقيدة، ويصفه أبو شامة بأنه كان مبغضاً للمعتلة والدهرية ومن يعاند الشريعة.

رحم الله صلاح الدين الأيوبي رحمة واسعة، حيث استنصح أهل العلم، وحافظ على مذهب أهل السنة والجماعة بطرق سلمية معتمداً على تغيير الأفكار وتفكيك وتجفيف منابع الفكر المتطرف، وأحل محله مذهب أهل السنة والجماعة، ووحّد بذلك أبناء الأمة وجمعهم على هدف طرد الصليبيين من بلاد المسلمين، لقد كانت حياته أشبه بالبركان، فقد كانت تحاك ضده المؤامرات تلو الأخرى، وينتقل من تحدّ إلى آخر، ولعلّ من أكثر التحديات التى واجهها - إضافة إلى الحروب الصليبية- تلك المؤامرات التى كان يحيكها أعداء الداخل من أهل البدع والأهواء على مدى خمس سنوات، فبعون الله قام صلاح الدين منذ توليه الوزارة فى مصر بمجموعة إجراءات سلمية استطاع خلالها فى الفترة الانتقالية تنظيف الحكم من برائن المتطرفين وأهل الظلم، بالحكمة واتباع قواعد الشرع الحنيف، ومن هذه الإجراءات:

إصلاح القوة العسكرية وبناء الجيش الخاص به، ومسك خزانة الدولة، مما أتاح له السيطرة على أموال الدولة.

عزل جهلة القضاة، وحصص مهمة القضاء فى العلماء الأفاضل من أهل السنة.

أحرق كتب المبتدعة التى كانت تروج للفكر المنحرف.

أمر الخطباء بالترضى على الخلفاء الراشدين والصحابية وأمّهات المؤمنين رضى الله عنهم.

منع أهل الأهواء من خطبة الجمعة في الجامع الأزهر وعطلّ تدريسيهم فيه. كما سرّح دعواتهم وألغى مجالس دعوتهم.

فرّق بين تجمعات أهل الأهواء ليكون أسرع إلى انقراضهم.

أمر بإصدار مؤلفات أهل السنة وخاصة في أمر العقيدة ومنها ما اشتهر باسم العقيدة الصلاحية التي كانت تعلم للأطفال وتردد على المآذن، وحذر من المندسين في الدين.

بنى المدارس المخصصة لنشر علوم أهل السنة، وخصص الأوقاف لها.

عمل على تحسين الأوضاع الاقتصادية للمجتمع وأطلق التجارة، وأبطل الضرائب والمكوس.

تابع ملاحقة بقايا أهل البدع في الشام واليمن.

استغرق الأمر من صلاح الدين حوالي ثلاث سنوات لاتخاذ الخطوة الحاسمة وأعلن رسمياً عن عودة مصر والشمال الإفريقي والحجاز واليمن وأنحاء من بلاد الشام إلى مذهب أهل السنة. وطُويت بذلك صفحة مؤلمة من صفحات التاريخ الإسلامي بعد ٣٠٠ سنة من انتشار أهل الزندقة والبدع التي هيمنت على تلك البقاع، وتأمرت على الإسلام وأهله، وتحالفت مع أعدائه، وقد عمّ الفرخ - بسقوط هذه الدولة - العالم الإسلامي.

أما وفي كلامنا عن حال أمتنا في يومنا هذا فنرى أنه - إضافة إلى أمثال تلك المحن التي مرت على الأمة عبر التاريخ - قد اختلّطت الأمور وأصبحت أكثر تعقيداً، وتتوعد التسميات باسم الدين وتكفيرها للمسلمين وتقتيلها لهم بحجة الدفاع عن القضية ومحاربة أهل البدع، كما وتتوعد التسميات باسم المحررين وتحت راية مذهب من المذاهب، إضافة إلى انتشار وباء الاستعمار الفكري وثقافته الغربية، والإلحاد والانحلال الخلقي، وجهل العامة التفريق بين الحق والباطل في حالة تدع الحليم حيران، كما ورد في سنن الترمذي، قال رسول الله ﷺ: " يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل أبي يغترون أم على يجترون فيبي حلفت لأبعثنّ على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيراناً ". وحال زماننا هذا كما وصفه رسول الله ﷺ: " بدأ الإسلام غريباً ثم يعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء، قيل: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس " (١).

(١) رواه أحمد وغيره.

طرق علاج ظاهرة الغلو والتطرف:

لابد من الإقرار أن الحل الوحيد لتفكيك الحركات المتطرفة واقتلاع جذور فكرها المتطرف يتم بالتعاون بين السلطة الحاكمة والعلماء العاملين الربانيين وذلك من أجل تحقيق توجيه الضوء على القضايا الكبرى وأساليب حلها بما يرضى خالق العباد، فعلاقة الحاكم والعالم فى حل القضايا الكبرى ورفع الأذى عن الناس سبيل لنشر العدل والإحسان، وفيه الرخاء والرقاء وسلامة أمن المجتمعات، وهو التشخيص الأمثل لتقديم العلاج الناجع بمجموعه لاضمحلال الحركات المتطرفة، والأساس لتأليف الوسائل العلمية والسلوكية والاجتماعية والسياسية، وتعود كل هذه الوسائل إلى فهم الدين على ما هو عليه، فهو الذى يضبطها ويحصرها فى حيز الاعتدال، وعندها يعرف الحاكم حقوقه وواجباته دينياً، ويعرف أفراد الشعب بكافة مستوياتهم وتخصصاتهم حقوقهم وواجباتهم دينياً. وذلك لأن الحرب الناجعة ضد التطرف هى حرب علمية لا بد أن ترافقها تدابير وقائية، بمنع المنحرفين من الوصول إلى المناصب السياسية والعسكرية والمالية واستغلالها للتحرك والتحدث زوراً باسم الإسلام، والحيلولة دون اعتلائهم المنابر المخصصة أصلاً لنشر حقائق الإسلام ومفاهيمه البعيدة كل البعد عن التطرف والغلو، بما فى ذلك المؤسسات التربوية والإعلامية، إضافة إلى المساجد وسائر دور العبادة.

وهنا يبرز بوضوح الدور التاريخى للأزهر الشريف من خلال علماء ومشايخ مدرسته بوسطيتها واعتمادها عبر التاريخ للحفاظ على عقيدة الأمة، وكذا مثيلاتها من مدارس أهل السنة والجماعة لتخريجهم الدعاة المعتدلين الذين هم خط المواجهة الأول وخط الدفاع الأقوى الذى فى حال سقوطه يصبح الطريق أمام هؤلاء المتطرفين مُعبّداً، وتصبح أهدافهم سهلة التحقيق، ويتجلى هذا الدور بالالتزام بأسس الدين الحنيف بقيادة مصر التعليمية، ومن خلال تعزيز الدور العالمى للأزهر الشريف والريادى فى مقارعة فرق التكفير الشمولى، والتزام الفرد بدور المواطنة كل فى مجتمعه وبيئته.

وبناء على ما ذكرناه نتقدم ببعض التوصيات العملية لتكون حيز التنفيذ:

أولاً: العلاج العقدي والديني:

١_ الاعتصام بالكتاب والسنة بالالتزام بفكر الوسطية والاعتدال، وتمثل المدارس الدينية بالأزهر الشريف بإعلان ميثاق جامع يلزمها عملياً بمدرسته، فأهل السنة والجماعة وسط في باب الصفات بين تعطيل الجهمية وتجسيم المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية، ومكافحة فكر التكفيريين وغلو الخوارج والمرجئة.

٢_ معالجة المظاهر العامة للفساد الأخلاقي والديني والتحذير من الإفراط، لقطع دابر الفتنة وسد باب الذرائع، ذلك من شأنه ألا يترك مجالاً للغلاة والمتشددين وتبريرات الكثير منهم لما يقومون به من مهاجمة المجتمع والتطاول عليه، ونرى سبل تحقيق ذلك من خلال:

- كشف أستار أهل الأهواء وتجريدهم من أقنعتهم وتحريفهم لمعاني الشرع الحنيف؛ بنشر العلم السليم وإقامة الحجج الساطعة والبراهين القاطعة عليهم.

- مكافحة ظاهرة التطرف؛ بتحسين المجتمع من خلال العمل على نشر العلم الديني الواجب بين الكبير والصغير، على قواعد الوسطية والاعتدال التي دعا إليها النبي محمد ﷺ.

- الاهتمام بتوحيد المناهج التعليمية في الدنيا التي تحيي كتب التراث، كتب أهل السنة والجماعة، وذلك بإقامة المعاهد والجامعات الدينية الناطقة بغير العربية، والتي تخرج العاملين في الحقل الديني الإسلامي، خاصة في بلاد الأعاجم؛ لإغلاق الباب على المتطرفين المتاجرين باسم الدين.

- الاهتمام بفتح مراكز إعداد الدراسات والأبحاث والترجمة، وفتح الفروع التابعة لها.

- العمل على تبسيط صياغة كتب أهل السنة المعترين عبر العصور، مع الحفاظ على الثوابت، بشكل يتناسب مع التطور التقني الحديث والبيئة العصرية بكل جوانبها.

- العمل على توحيد المصطلحات الدينية في اللغات الأجنبية، خاصة في المتشابه.

- تدقيق واعتماد المؤلفات الدينية المعتمدة لحماية القراء من كتب التطرف الديني.

- إعداد الدورات التأهيلية للأئمة والوعاظ بما يتناسب والبيئة التي يعملون فيها.

- اعتماد الإجازات في تحصيل العلم بالتلقى كأساس يخول الواعظ والمدرس القيام بوظيفته.

٣- تأسيس المجلس الأعلى للتنسيق بين دور الفتوى والمنظمات الدينية لأهل السنة. وذلك

لأن لدور الفتوى والمؤسسات التي تشرف على شؤون الأئمة والخطباء والمساجد دوراً أساسياً ومهماً يتجلى من خلال النقاط التالية :

- ترشيد الخطاب الإسلامى للعلماء والمشايخ والدعاة، وأخذهم دورهم فى بث التعاليم والمفاهيم الإسلامية الصحيحة التى تدعو إلى الاعتدال، وتصديهم ومحاربتهم لانتشار الأفكار المتطرفة، ولنجاح هذا الأمر لا بد من تسمية الأشياء بمسمياتها، وكشف أسماء رؤوس التطرف وأفكارهم وكتبهم ومؤسساتهم.

- التدقيق والتحصين فى انتماءات أئمة المساجد، وخطباء الجمعة، ومدرسى المواد الدينية فى المؤسسات التربوية، والعاملين فى المحاكم الشرعية وفى دار الإفتاء، والتنبه إلى عدم وجود أشخاص ينتمون إلى هذه الحركات المتطرفة من الذين يبثون من خلال مواقعهم الأفكار الهدامة التى تعرض الشعب على الفتن والقتال.

- الحد من انتشار الكتب والأشرطة التى تعتمدها الجماعات المتطرفة وتروجها لتثويش المجتمع المسلم، والعمل على حذفها من المكتبات وإتلافها.

ثانياً: العلاج العلمى والتربوى:

العمل على إصلاح النظام التربوى من خلال:

- الاهتمام بتربية الناشئة؛ بتجديد وإقامة المؤسسات التعليمية المتخصصة والمتوافقة مع العلوم العصرية.

- اعتماد سلسلة من الكتب والمراجع الدينية العلمية المعتدلة، ونشرها فى كل المؤسسات التربوية من روضة الأطفال والمدارس والمعاهد والجامعات.

- الاهتمام البالغ بتثقيف المرأة المسلمة، وإثبات أنها عضو فاعل فى المجتمع، وأهمية رعايتها لبيتها.

ثالثاً: العلاج الإعلامى:

- سد الذريعة التى يستعملها الفكر المتطرف - بسبب الفكر العدائى الواضح لشخصية سيدنا محمد ﷺ، وتلك الصورة القاتمة حول الإسلام والمسلمين فى وسائل الإعلام الغربية- وذلك من خلال العمل الدؤوب على تصحيح فكرة الرأى العام الغربى بمجابهة تلك الصورة المشوهة فى وسائل الإعلام عبر الاستفادة من ثقل الأقليات المسلمة فى الغرب واستخدامها المباشر لتصحيح تلك الرؤية؛ لأن فكرها المندمج مع المجتمع الغربى يسهم فى استخراج الوسائل الحديثة المطورة للغة الخطاب، ووضع الخطط المناسبة لتنفيذ الإستراتيجية الإعلامية اللازمة؛ باعتبار المسلمين فى الدول الغربية هم الأكثر فهماً لطبيعة الجمهور المستهدف وأساليب مخاطبته.

- تكثيف الاتصال بوسائل الإعلام الغربية ومراكز الدراسات والبحوث، وبالجامعات

والمعاهد التعليمية فى الدول غير الإسلامية؛ لتصويب ما يصدر عنها بشأن الإسلام والمسلمين.

- الاجتهاد فى فتح أبواب الحوار مع مراكز التأثير فى صناعة القرار والرأى العام فى الدول الغربية، وكذلك مراكز البحوث والدوائر الأكاديمية ووسائل الإعلام العالمية.

- تبنى رؤى منهجية وإجرائية استنادًا على ندوات ومؤتمرات يجتمع فيها الفعاليات الإسلامية المغتربة، ومعها تمثيلات الأقلية المسلمة فى الدول الغربية، تجتمع لدراسة أوضاع القضايا الإسلامية، على أن تنتهى هذه الاجتماعات بإصدار التوصيات القابلة للتنفيذ، والمعتمدة إلى حد كبير على معرفتها بالبيئة التى تطبق فيها هذه التوصيات .

ولابد من التركيز هنا على أنه عند ذكر عبارة " الحركات المتطرفة والإرهابية "، دون تبيان خلفها العقائدى مع أهل السنة والجماعة يجعل العديد من العامة يقع فى شباكها، مما يفرض علينا بوضوح تبيان وجه الخلاف معها، وأهمية مجابتهها فكريًا وحماية الشباب من سمومها بالدليل القاطع الفاضح لها؛ وذلك لأن هذه الحركات المتطرفة تتلون وتنتكر بصور وأسماء متعددة من الحركات الأصولية إلى الحركات المتطرفة ثم الإرهابية إلى غير ذلك مما حملته من أسماء سابقة تحمل صبغة إسلامية أو سوف تظهر بها لاحقًا من أصناف التسميات، والعامة لا تعى ما تحمل هذه الحركات من قواسم مشتركة، وهى: الغلو والانحراف عن المفاهيم السليمة والجامع الفكرى المشترك مصدره شخصيات دينية واحدة وردت أسماءها كمرجعيات دينية لها، تعتمد فى الفتاوى وتنقيد بها.

- يحتاج المسلمون اليوم إلى بلورة خطاب إعلامى عصرى نقدى وموضوعى، يغزو الأسواق الغربية، ويبتعد عن رتابة الخطاب الإعلامى العربى والإسلامى الموجود اليوم، ونحتاج خطابًا يتجاوز الإطلاقات المتناقضة، ويعلو على النزعة العاطفية، ويؤسس رؤية معرفية إسلامية مستقلة وشاملة، ويرتكز على الانفتاح النقدي، وللأسف ما زلنا نفتقد كثيرًا اليوم مثل هذا الخطاب.

- كما يحتاج المسلمون أيضًا إلى خطاب إعلامى إسلامى شمولى فى معناه، يرفع من شأن الأمة، ويمتيز فى مضمونه المناسب لانتماء المواطن المسلم إلى وطنه ومحيطه الذى يتعايش فيه مع الآخرين من أبناء بلده، وهذا يتطلب أساسًا من المسؤولين والمشرفين على الخطاب الإسلامى أن يتبنوا رؤية شاملة مناسبة للمرحلة، وأن يؤمنوا بسنة التدافع الحضارى، وأن يكونوا مدركين للبعد الحضارى للظواهر والأشياء المستحدثة، حتى يسهموا فى تفعيل وتوسيع دائرة المفهوم السليم للقيم الإنسانية.

- عدم التسهيل أو التشجيع على الاستماع لمحاضرات وندوات ولقاءات، بعضها قد يكون

عبر وسائل الإعلام، لشخصيات تُظهر في العلن عدم انتمائها لأي تنظيم ولكنها في الخفاء تعمل على نشر الأفكار المتطرفة.

إضافة إلى ذلك هناك دور مؤسسات المجتمع الأهلي الاجتماعية الثقافي، ومجتمع الاقتصاد ورجال الأعمال، فالعمل المنظم المتدرج سيكون بإذن الله تعالى صد هذه الجماعات المتطرفة، وتقويض بنيانهم والحد من توسعهم وانتشارهم؛ لأنهم سيجدون أنفسهم بمواجهة الشعب الذي يرفض أفكارهم التي تعارض ما تعلمه من المفاهيم السليمة، وبالتالي فإن الشعب هو الذي سيقف بوجههم وليس الدولة بشكل مباشر، والشعب هو الذي سيقول كلمة الفصل؛ لأنه سيعلم العلم الديني الصحيح في المؤسسات التربوية، وفي الوسائل الإعلامية، كما في الشوارع والنوادى والمنديات.

أما بالنسبة لأهل السياسة فنذكر بقول المصطفى ﷺ: الدين النصيحة، وهو لأئمة المسلمين وعامتهم؛ فمن واجب الحكام والأمراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ بنصيحة أهل العلم الربانيين.

وبعد استخدام كل الوسائل والسبل الناجعة لمعالجة ظاهرة الغلو والتطرف، فيكون آخر العلاج الكى، إذ إن بعض الغلاة لا يصلح معهم إلا العقوبة والردع بالتعزير من حبس أو نفي أو ضرب ونحوه، ولو اضطر الأمر لاستخدام القوة والمجابهة العسكرية وذلك بضوابط شرعية يحددها أهل الاختصاص، فقد شرع الله تعالى العقوبات ونوعها.

في الختام أذكر قول أبي علي الدقاق: إن الساكت عن الحق شيطان أخرس، والله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون؛ فعلينا جميعاً بذل كل نفيس والعمل بتفان وإخلاص؛ ليكون لنا سهم فى الحفاظ على الإرث المحمدى للأجيال القادمة، وذلك بإحياء نشر العقيدة الإسلامية الحققة فهى الحصن الحصين والقول المتين للتصدي للقضايا التى عصفت بالأمة على مر العصور.